خطاب الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص
في حفل استقباله

أيها الحفل الكريم

بتاريخ الخامس عشر من شهر آذار عام تسعة وسبعين وتسعمائة وألف شرّفني أعضاء مجمع اللغة العربية بانتخابي عضواً عاملاً في المجمع، فسعدت بانضمامي إلى هذه النخبة الكريمة من رجال العلم والأدب في قطرنا العربي السوري التي جعلت وكدها العناية بلغتنا الحبيبة والحفاظ على تراثنا العريق. على أنني آثرت التريث في الانضمام الفعّال إلى المجمع ورجوت زملائي الكرام فيه إرجاء حفل الاستقبال بسبب إقامتي المؤقتة في القطر الكويتي الشقيق للتدريس في جامعته.

وكنت أقدّر أن إقامتي في القطر الكويتي الشقيق لن تتجاوز السنتين، ولكن أنّى للمرء أن يقف على ما يخبؤه له الغيب، ومن يزعم أن مصيره بيده إنما يتشبث بالأوهام، فكذلك وجدتني أجدّد عقدي لدى جامعة الكويت عاماً بعد عام. والآن وقد عدت إلى الديار رحّبت بما أبداه لي أخي الدكتور شاكر من رغبة في إقامة حفل الاستقبال، آملاً أن يتاح لي النهوض بقسط من ذلك العبء الثقيل المنوط بزملائي المجمعيين الكرام، وقد غدت الحاجة ماسة اليوم إلى تضافر جهود العاملين فيه للنهوض بهذا العبء.

وأرى لزاماً عليّ في مستهل كلمتي أن أتقدم بخالص الشكر إلى الصديق الدكتور شاكر الفحام الذي تفضل بترشيحي وتزكيتي في كلمته الطيبة، والأخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدكتور شاكر رفيقي في الدرب الطويل، مضينا فيه معاً منذ ميعة الصبا، تباعد بيننا الأيام ثم لا نلبث أن نلتقي، وهو الأخ الكريم الذي عناه المثل العربي: رب أخ لم تلده أمك.

وأتقدم كذلك بخالص الشكر إلى أعضاء المجمع الأفاضل الذين أحسنوا الظن فيّ فاختاروني زميلاً لهم، وأرجو أن أكون أهلاً لثقتهم ومحققاً لحسن ظنهم كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى جميع من تفضلوا بحضور هذا الحفل.

وأصدقكم القول إنني حين أتاني نبأ اختياري عضواً في هذا المجمع انتابني شعور تمتزج فيه السعادة بشيء من التهيب والرهبة. أما سروري وسعادتي فمردهما إلى انتمائي إلى هذه المؤسسة الأكاديمية الخطيرة الشأن وتهيؤ الفرص أمامي لإنجاز أعمال في إطار المجمع كنت أمني النفس القيام بها منذ أمد طويل، وهي تدور في فلك النهوض بلغتنا الحبيبة وانقاذها من أيدي العابثين بها، كما تدور في فلك العناية بتراثنا العريق دراسة لروائعه وتحقيقاً لطائفة من آثاره وجلاء للجوانب المضيئة فيه. وأما شعوري بالتهيب والرهبة فكان مرده إلى تهيب المهمة الثقيلة التي سيفرض علي القيام بها باختياري عضواً عاملاً في المجمع، وخشيتي من أن يكون التصدع الذي أحدثته معاول التهديم في صرح لغتنا وتراثنا أشد خطراً من أن تستطيع القوى البناءة في عالمنا العربي رأبه وإصلاحه، إذ أن أعاصير الافساد والهدم تتنامى شدتها يوماً بعد يوم في حين أن السدود المتواضعة التي تشيدها أيدي الغيورين على اللغة والتراث لم تعد قادرة على صد تلك الأعاصير المدمرة، والمعركة غير متكافئة والغد يلوح لنا متجهماً كالح القسمات. ولا شك في أن جميع الغيورين على لغتنا وتراثنا يشاطرونني هذا الشعور بالأسى والتشاؤم إزاء احتمالات المستقبل الكالح ونذره المفزعة.

أيها السادة

لا يسعني وأنا أقف بين أيديكم اليوم، بعد انقضاء عشرة أعوام على انتخابي عضواً في المجمع إلا أن أذكر والقلب يغمره الأسى وجوهاً كراماً من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الزملاء المجمعيين غابت عنا واختارهم الله إلى جواره إبان هذه الحقبة، وكانت خسارة المجمع بفقدانهم لا تعوض، فقد كان لهم الفضل الأوفى في النهوض بالمهمام الجسام المنوطة بالمجمع وفي الإسهام في مختلف أوجه النشاط التي يتولاها. وإني لأقف وقفة الإجلال والتقدير في ذكرى الراحلين الكرام، الدكتور أسعد الحكيم، والأستاذ شفيق جبري، والدكتور ميشيل خوري، والأستاذ محمد المبارك، والدكتور حكمة هاشم، والدكتور عبد الكريم زهور، والدكتور شكري فيصل، والدكتور كامل عياد، والدكتور حسني سبح رئيس المجمع، وأخيراً الفقيد الكريم الأستاذ عبد الهادي هاشم.

وبعد فقدان المجمع هذه النخبة الفاضلة من أعضائه العاملين تغدو الحاجة ماسة إلى رفد المجمع بأعضاء جدد يتابعون مسيرته على درب النهوض بلغتنا الحبيبة والعناية بتراثنا العريق دراسة ونشراً وتحقيقاً. إنه لمّا يدعو إلى الاعتزاز أن مجمعنا هذا استطاع أن يحقق الكثير إبان مسيرته التي تقارب سبعين عاماً، على ضآلة ما يرصد له من أموال وقلة عدد أعضائه العاملين، فقد نشر عدداً ضخماً من كتب التراث المحققة في مختلف مناحي البحث الأدبي واللغوي والعلمي. وعني ـــ إلى ذلك ـــ بوضع مصطلحات لطائفة كبيرة من الألفاظ الجديدة. وشارك أعضاء المجمع في جميع المؤتمرات والندوات التي عقدت سواء في الوطن العربي أو في الأقطار الأخرى والتي دارت موضوعاتها حول مباحث تقع في إطار اهتمامات المجمع. هذا فضلاً عن مجلة المجمع الرصينة ذات المستوى الرفيع، وقد حظيت بإقبال يبعث على الرضى والاعتزاز لدى المعنيين بالدراسات التراثية واللغوية وغدت مرجعاً أساسياً للباحثين في مختلف الأقطار.

بيد أننا، على رغم اعتزازنا بهذا الجهد الضخم الذي بذله المجمع نطمح إلى مزيد من العطاء وإلى أن يتسع مجال عمله فيعنى بأمور أخرى تفتقر إليها المكتبة العربية كتأليف المعجمات على نحو حديث يساير تطور المباحث اللغوية، ووضع معاجم تخصصية يتناول كل منها لوناً من ألوان المعرفة. ومن ذلك أيضاً العناية بتصنيف موسوعات ومؤلفات تسد ما نجده من نقص في المباحث الأدبية والتاريخية والجغرافية وغيرها.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بل إننا نطمح إلى أن يخطو المجمع خطوة أبعد في طريق النماء والتطور، نطمح في أن يغدو المجمع فيما يستقبل من أيامه لبنة في مؤسسة أكاديمية واسعة تضم النابهين من المفكرين والأدباء واللغويين والعلماء ـــ على غرار الأكاديمية الفرنسية مثلاً ـــ وأن لا تقتصر عضوية هذه المؤسسة على المقيمين بدمشق وحدهم بل يشارك فيها رجالات القطر في مختلف أرجائه، ويكون من مهام هذه المؤسسة العناية بشتى ألوان النشاط الفكري والأدبي واللغوي والعلمي وإذكاء وقدة الابداع لدى الباحثين على اختلاف تخصصاتهم.

وثمة خطوة أخرى أرى أن الحاجة إليها أصبحت ملحة اليوم لتفادي تشتيت الجهود والطاقات التي تبذل في سبيل صيانة اللغة العربية وتراثنا الأدبي والعلمي، تلك هي إنشاء مجمع موحد للغة العربية تسهم فيه الأقطار العربية كافة مع بقاء المجامع اللغوية القطرية. ومهمة المجمع الموحد التنسيق بين أعمال المجامع القطرية وتوحيد المصطلحات التي تتبناها هذه المجامع دفعاً لتعدد المصطلحات بتعدد الأقطار والمجامع اللغوية، وهو أمر نعاني منه الكثير اليوم. وكذلك يكون من مهامه إصدار معجم لغوي شامل تراعى فيه الأصول الحديثة في وضع المعاجم، وفي كل عام يعاد النظر فيه ويضاف إليه ما يجدّ من المصطلحات بحيث يكون مسايراً للتطور العلمي والتقني والفكري، على أن يكون لهذا المجمع الموحد سلطة التشريع اللغوي وأن تلتمس الوسائل الكفيلة بإنفاذ مقرراته وتوصياته.

ومن المحقق أن النهوض بهذه الأعباء كلها لا يتسنى إلا إذا رفد المجمع بأعضاء جدد تؤازرهم جماعة من الباحثين غير المجمعيين، وربما كان من الضروري كذلك رفد المجمع بدماء شابّة يلتمس لها سبيل العمل في المجمع من طريق تطوير نظمه وأساليب العمل فيه.

على أن المهمة الشاقة التي تجابه المجمع وتفرض عليه التفرغ لها وتعبئة القوى للنهوض بها إنما هي إنقاذ اللغة العربية من الوهدة العميقة التي تردّت فيها أو هي على وشك أن تتردى فيها ما لم نبادر إلى الأخذ بيدها. إن الغيورين على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لغتنا الحبيبة ليأخذهم الروع وهم يعانون اليوم ما ينتاب هذه اللغة من آفات تتعاظم يوماً بعد يوم فتنخر عظامها وتوهن قواها وتوشك أن تفقدها دفقة الحياة وذماءها، إن لغتنا تواجه اليوم تحدياً خطيراً يتمثل في أمور شتى: منها غلبة العجمة والرطانة على الكثرة من هذه الأجيال الناشئة من أبناء الأمة العربية، وتفشي وباء اللحن في أوصالها. ومنها سقم الأساليب المستخدمة في تدريسها في شتى مراحل التدريس وعدم كفاية جل من يتولون تدريسها، مما أدى إلى نفرة الطلاب من دروس العربية وفتور إقبالهم عليها ولا سيما مادة النحو التي باتت في نظر الطلاب درساً بغيضاً ثقيل الظل. ومرد هذه النظرة إلى أنهم يتلقون معارف لا يطيقون استيعابها وتمثلها وهي تساق إليهم بأساليب بالية منفرة، حتى لقد بتنا والله نخشى أن يأتي يوم على هذه الأمة تغدو فيه اللغة الفصحى منبوذة مطّرحة لا يجيدها إلا قلة من المتخصصين وتغدو حالها كحال اللغة اللاتينية لدى مثقفي الغرب، لغة تستعمل في مجالات محدودة ضيقة ولا يجيدها إلا قلة من المختصين بدراستها.

وأخطر ما تواجهه لغتنا اليوم تكالب طوائف من الشعوبيين المتنكرين للعروبة وتراثها على مناهضة هذه اللغة ودعوتهم إلى إطراحها ونبذها واستبدال العامية بها لأنها ـــ في زعمهم ـــ لغة الحياة والواقع أما الفصحى فلم تعد صالحة عندهم للتعبير عن مقتضيات حياتنا وآفاقنا المعاصرة وتلك فرية مختلقة لا تجوز إلا على السذج وعلى الجاهلين بحقيقة لغتنا وما تختزنه من طاقات لا تنفد وما تتسم به من خصب في المفردات لا تضارعها فيه لغة أخرى، ومن طواعية عجيبة تجعلها قادرة على التلاؤم مع التطور الفكري والاجتماعي والعلمي ومع ما يستجد من أنماط الحياة ومستخدمات الحضارة، ولكننا جهلنا حقيقة لغتنا فاتهمناها باطلاً بالقصور والعجز، والعجز في حقيقة الأمر إنما هو في أبنائها. وتهمة أخرى توجهها بعض الفئات إلى لغتنا تلك هي أنها لم تعد تصلح لأن تكون وعاء للعلوم المستحدثة وهي عاجزة في نظرهم عن مواكبة مسيرة العلم والتقدم التقني ولم تعد قادرة على استيعاب التطور العلمي المتسارع الخطى،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والخير ـــ في رأيهم ـــ أن تستبدل بها اللغات الأجنبية في مجال تدريس العلوم لأنها أقدر على الوفاء بمتطلبات العلم الحديث. وهذا الزعم ينطوي كذلك على جهل فادح باللغة العربية وقدرتها العجيبة على التطور والنماء والتلاؤم مع المتغيرات الطارئة. ولو أن هؤلاء ساءلوا التاريخ عن مسيرة اللغة العربية في مختلف الأطوار التي مرت بها وشتى البيئات التي انتشرت فيها لأجابهم بما يجعلهم يفيقون من غفلتهم، فقد استطاعت لغتنا استيعاب مختلف العلوم والمعارف التي وقف عليها العرب إبان عصورهم المزدهرة ولم يحتاجوا إلى استخدام لغات الأمم الأخرى وإنما استخدموا لغتهم التي استجابت مطواعاً للمعاني الطارئة والمعارف المستحدثة ولم تنؤ بالعبء الملقى على كاهلها بفضل الوسائل المتاحة لها من اشتقاق وتعريب واصطلاح وغيرها. ونحن لسنا من المتزمتين الذين يدعون إلى تجميد اللغة في قوالبها وأطرها المتوارثة ولا نعد الاستمداد من اللغات الأخرى أمراً محظوراً وإنما نقول بضرورة تطوير اللغة العربية وتوسيع آفاقها بحيث تتسع لشتى المعارف العلمية والتقنية المتنامية بتنامي المعرفة العلمية والتطور التقني الهائل الذي يعيشه عصرنا وسوف يتعاظم شأنه على نحو متسارع في الحقب المقبلة. ولا نرى حرجاً في الاكثار من التعريب والاصطلاح وفي حقن لغتنا بلقاح مستمد من اللغات الأخرى يجعلها أقدر على مواجهة مستحدثات العلم والتقنية واحتواء الموجات المتلاحقة من معطيات العلوم الحديثة. بيد أن قولنا بتنمية اللغة العربية وتوسيع آفاقها ورفدها بالمستحدث من المصطلحات والمفردات لا يعني أبداً تسليمنا بوجوب تعليم العلوم باللغات الأجنبية وتخلينا عن لغتنا والحكم بعجزها على أن تكون وعاء للمعاني والمفاهيم والمصطلحات العلمية المستحدثة، ولنا في التجربة السورية برهان ناصع على طواعية لغتنا وقدرتها على استيعاب كل جديد، بل إن لنا من تاريخ الحركة العلمية في حضارتنا ما يؤكد هذه المقولة، فقد ترجمت مختلف العلوم والثقافات الأجنبية في عصورنا المزدهرة ـــ والعصر العباسي خاصة ـــ إلى العربية ووضعت مصطلحات للألفاظ الدالة على المعاني والمصطلحات المتصلة بهذه العلوم والثقافات ثم درست العلوم والفلسفة باللغة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العربية في المشرق والمغرب ولم يزعم زاعم يعتد برأيه أن لغتنا لم تكن صالحة لاحتواء هذه الثقافات، بل إن من درسوا العلوم والفلسفة في جامعة الأندلس كانوا يتعلمون العربية لاقتباس هذه الثقافات ونشرها بعدئذ في بلاد الغرب.

إن الأمة حين تتخلى عن لغتها القومية فإنما تتخلى عن وجودها وهويتها، فمن المحقق أن اللغة هي أبرز مقومات الأمة ومرآة حضارتها وفكرها ومعيار رقيها ومجتلى نهضتها. وإذ أردت أن تتعرف إلى حظ الأمة من الارتقاء والنهوض فانظر إلى لغتها وحظها من النماء والقوة ومدى عناية أبنائها بها وغيرتهم عليها. وحين تحاول الأمم المستعمرة إلغاء وجود الأمة التي تستعمرها ومسخ شخصيتها فإنها تتجه أول ما تتجه إلى القضاء على لغة هذة الأمة وفرض لغتها مكانها، صنيع فرنسا مثلاً لدى احتلالها الجزائر والمستعمرات الإفريقية وانكلترا لدى احتلالها الهند، والأمثلة على ذلك كثيرة.

إن الأمة العربية واجهت بالأمس وتواجه اليوم تحديات خطيرة على الساحة السياسية، وقوى خصومها تتضافر متوخية تمزيق الوشائج التي تؤلف بين مختلف أقطارها، فهم يدركون أن قوة الأمة ومنعتها إنما تكونان في التئام شمل أبنائها وفي وقوفهم صفاً واحداً متراصاً تتكسر على أسواره معاول المعتدين، وهم يدركون كذلك أن من المنافذ الخبيثة إلى تصديع وحدة الأمة وزعزعة بنيانها الطعن في لغتها التي تجمع شمل أبنائها ومحاولة هدمها والقضاء عليها، وقد استخدم أعداء الأمة العربية لتحقيق مآربهم الخبيثة وسائل شتى من أبرزها التشكيك في قدرة لغتنا على مواكبة مسيرة العلم والفكر، ومنها كذلك بث الدعوة من طريق صنائعهم إلى استخدام العامية بدلاً من الفصحى، ومنها تشجيع الأقليات الجنسية التي تعيش في الوطن العربي على استخدام لغاتها ولهجاتها سواء في حياتها العامة أو في إنتاجها الأدبي إمعاناً في تمزيق أوصال الوطن العربي وإثارةً للضغائن بين مختلف الفئات التي تعيش على ترابه. لقد شجعت فرنسا مثلاً إبان استعمارها المغرب العربي والجزائر خاصة العناصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البربرية الأصل على إحياء لغتها والعناية بها وجعلها لغة الدراسة والتأليف والانتاج الأدبي .

وعلى صعيد آخر أغرى المستعمر الغربي نفراً من أعوانه باستخدام العامية في نتاجهم الأدبي بدعوى إنها أقدر على التعبير عن الواقع . وقد جازت هذه الخدعة المموهة على نفر من ضعاف القلوب والألباب فحققوا أمنية المستعمر ولم يدركوا الأهداف البعيدة التي توخاها من وراء هذه الدعوة، فكانوا عوناً له ـــ من حيث لا يدرون ـــ على تحقيق أغراضه الخبيثة، ومن ورائهم طائفة من الشعوبيين الحاقدين على الأمة العربية وحضارتها لبست لبوس المفكرين والمنظّرين وراحت تزخرف القول في فضل العامية وتزين لأبناء الأمة استخدامها فيما ينتجون ويكتبون . وهذا ميدان من ميادين الصراع ينبغي على المخلصين من أبناء العروبة أن يخوضوه ذياداً عن لغة الأمة، وهو ميدان لا يقل شأناً عن ميدان الصراع الحربي، لأن أي وهن يعتري هذه اللغة هو بمثابة معول يوجه إلى صرح الأمة العربية وإلى الدعائم التي تقوم عليها وحدتها ومنعتها .

ونحن حين نعاين اليوم المحاولات المحمومة التي يبذلها أعداء هذه الأمة للنيل من وحدة كلمتها وإثارة الضغائن بين أبنائها تعود بنا الذاكرة إلى أبيات نصر بن سيار التي خاطب بها العرب أيام احتضار الحكم الأموي وحذرهم فيها من تآمر العناصر غير العربية عليهم فنردد كلمته المشهورة :

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتهم ... فليغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا ... حرباً يحرّق في حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجا عن رأيكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلكم ... مما تأشب لا دين ولا حسب
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به ... عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم ... فإن دينهم أن تقتل العرب

●

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أيها السادة

لقد أسعدني الحظ خلال السنوات السابقة بالعمل أستاذاً في جامعتين عربيتين أحداهما في مغرب الوطن العربي هي جامعة الجزائر والثانية في مشرقه وهي جامعة الكويت.

ولقد لمست إبان عملي في هاتين الجامعتين ومن خلال اتصالي بأبناء مغربنا العربي والمشرق العربي أن وحدة الأمة العربية هي حقيقة ثابتة وليست وهماً من الأوهام ولا حلماً من الأحلام، وهي متحققة على صعيد الواقع ولا تفتقر إلى مؤيدات سياسية أو مواثيق ومؤتمرات يجتمع فيها ساسة الأقطار العربية، والوحدة التي أعنيها ليست تلك الوحدة التي تتوارى فيها الحدود وتندمج الدول وتتوحد النظم في إطار دولة عربية واحدة تنتظم الوطن العربي من محيطه إلى خليجه، لا لست أتحدث عن هذه الوحدة الشاملة التي هي مناط أمل كل من تسري في عروقه دماء العروبة، وإنما أتحدث عن وحدة العواطف والتطلعات والآمال والرؤى، وهي وحدة عفوية تنبثق من القلوب ولا تنتظر لتحققها صدور قانون أو عقد ميثاق، فإنك واجد لدى أي مواطن عربي تلقاه، سواء في مشرق الوطن العربي أو في مغربه، صدى ما يخالجك من أحاسيس ومشاعر وآمال وهموم، ولا غرو، فالأرحام الواشجة لا تقطع أواصرها حدود ولا قيود وروابط التاريخ والثقافة واللغة أقوى من أن تفصمها الكيانات السياسية المصطنعة.

ومن المحقق أن اللبنة الأولى في صرح الوحدة السياسية إنما هي الوحدة الثقافية. فلندع إذاً للساسة أن يسعوا إلى تحقيق الوحدة السياسية بالأساليب التي يرتؤونها ولنمض نحن على درب التواصل الثقافي، فهو في نظرنا الوسيلة الأكثر جدوى لتحقيق وحدة الأمة العربية. ومما يدعو إلى الغبطة والتفاؤل أن القطر الكويتي الشقيق شهد في السنوات المنصرمة انعقاد لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية، وقد شارك في أعمال هذه اللجنة باحثون من مختلف أقطار الوطن العربي واستمر عمل اللجنة سنوات ثلاثاً وخرجت بقرارات وتوصيات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على جانب كبير من الخطورة وأملنا أن ترى هذه التوصيات طريقها إلى التنفيذ الفعلي.

أيها السادة

لقد شرفني مجمع اللغة العربية باختياري عضواً عاملاً فيه لأكون خلفاً لراحل عظيم المنزلة ووجه نيّر من وجوه المجمع التي غيبتها يد المنية هو الفقيد الكريم الأستاذ عارف النكدي. ويقتضيني الوفاء بمنزلة الفقيد الجليل أن أتحدث عنه وعما كان له من أياد لا تنسى في شتى المجالات.

لم يسعدني الحظ بلقاء الفقيد في حياته، ولكنني كنت أتابع ما ينشره من بحوث وما يقوم به من جهد في خدمة العربية. ولما عكفت على تقصي أخباره ومراحل سيرته ووقفت على أوجه نشاطه الدائب سواء في مجال المهام التي نيطت به أو في مجال البحث والتأليف امتلأت نفسي إعجاباً بشخصيته وبما انطوت عليه من كريم الخلال وقوة الشكيمة ومن تشبث لا يتسرب إليه الوهن بالمبادئ القويمة والقيم الخلقية الرفيعة ومن سعي دائب في سبيل النهوض باللغة العربية ومن نشاط لا يفتر في شتى الميادين التي عمل فيها سواء في ميدان القضاء أو في ميدان العمل الاداري أو في الحقل الاجتماعي، كما أعجبت أيما إعجاب بمواقفه الوطنية أيام كان للمستعمر اليد العليا في إدارة شؤون البلد والهيمنة على أموره وعلى طائفة من ساسته المتخاذلين الحاطبين في حبله.

إن سيرة الفقيد العظيم خليقة بأن تكون أمثولة يقتدى بها للنضال الوطني الصادق والجهد الاجتماعي المثمر والعمل الاداري النزيه المخلص والبحث العلمي الجاد.

والحديث عن سيرة الفقيد حديث طويل متشعب الفجاج فقد عاش حياته التي ناهزت التسعين عاماً دائب النشاط والحركة وتولى العديد من المناصب وأسهم في مختلف أوجه النشاط الاجتماعي والسياسي والأدبي والفكري ولم يتوقف عن العطاء حتى وافته المنية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ينتمي فقيدنا إلى أسرة كان لها ذكر وشأن في تاريخ بني معروف هي أسرة آل نكد، ومن الأسماء البارزة من رجال هذه الأسرة في العهد القريب رأس هذه الأسرة رشدي النكدي وعادل النكدي الذي استشهد إبان الثورة السورية وفقيدنا عارف النكدي.

تمتّ هذه الأسرة إلى أصل عربي قديم ولكن المؤرخين لم يتفقوا على تعيينه فيذهب الدكتور محمد كامل حسين إلى أن أسرة آل نكد تنتمي إلى إحدى القبائل العدنانية التي كانت تستوطن الحجاز في العصر الجاهلي إلا أنه لا يذكر اسم هذه القبيلة. فأما أنها قبيلة عدنانية فذلك ما تؤكده ترجمة الفقيد التي خطها بقلمه لنفسه ولأسرته وقد ذكر أنها قبيلة تغلب ابنة وائل الربعية. وأما أنها كانت تقطن الحجاز فأمر فيه نظر لأن المصادر التاريخية القديمة تذكر أن موطن قبيلة تغلب قبل الإسلام لم يكن الحجاز وإنما شمالي بلاد العراق والجزيرة الشامية محاذياً لنهر الفرات.

يذكر الفقيد في ترجمته أن انتماء آل نكد إلى قبيلة تغلب تؤكده الروايات المنقولة عن الأجداد والمدونة في مخطوطات الأسرة ومما يؤكد هذا الانتماء التغلبي أيضاً الأسماء التغلبية التي سمي بها شيوخ هذه الأسرة ثم أطلقوها على أبنائهم رجالاً ونساء إلى عهد قريب.

ويذكر المترجم أن أبناء هذه الأسرة خرجوا من الجزيرة العربية إلى مصر فالمغرب مع جيوش الفتح الإسلامي ولا يزال إلى اليوم الجمهور الأكبر منها مقيماً في الساقية الحمراء وتعرف هناك بالأنكاد، والساقية الحمراء أو ساقية الذهب هي الصحراء موضع التنازع اليوم بين المملكة المغربية وجبهة البوليساريو.

ليس ثمة ما يعيننا على اقتفاء خطوات العشيرة النكدية على نحو واضح دقيق في انتقالها من بلاد العرب إلى مصر وافريقية، ثم في عودة الجمهور الأكبر منها إلى مصر فلبنان. ويذكر المترجم أن أسرته أو جماعة منها عادت إلى مصر في جيش الخليفة الفاطمي المعز ثم انتقلت بعدئذ إلى لبنان فأقامت ردحاً من الوقت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في قرية (برجا) ثم انتقلت إلى (بعقلين) واستقرت آخر الأمر في (دير القمر) وظلت مقيمة فيها حتى سنة خمس وأربعين وثمانمئة وألف للميلاد. وفي تلك السنة أخرجتها الدولة العثمانية من دير القمر فاستقرت في بلدة (عبية) وهي موطن الأسرة حتى اليوم.

هذا ما يذكره الفقيد في ترجمته لعشيرته، ونجد في مصادر أخرى مزيداً من التفصيل حول أخبار الأسرة وتنقلها في أقطار المشرق والمغرب. ولا تتفق أقوال المؤرخين في تتبعهم لمسيرة العشيرة النكدية منذ خروجها من بلاد العرب فيذكر الدكتور محمد كامل حسين أن بطوناً من عشيرة آل نكد قدمت إلى بلاد الشام مع جيوش الفاطميين واستقرت أول الأمر بمنطقة حلب. وفي سنة أربع وخمسمائة للهجرة قدمت طوائف منها إلى منطقة الشوف بلبنان واتصلوا بالأمير المعني وصاروا من أعوانه. وكان المعنيون قد اتخذوا في بادئ الأمر بعقلين حاضرة لهم ثم انتقلوا إلى دير القمر فأقام النكديون إلى جوارهم واتصل آل نكد بعد ذلك بأمراء الشهابيين وكانوا تارة يظاهرونهم على أعدائهم وتارة أخرى تفسد علاقتهم بهم، وربما تعرضوا لبطش الشهابيين وأذاهم فيضطرون إلى النزوح عن ديارهم إلى مواطن أخرى في بلاد الشام، وقد أقاموا حقبة من الزمن في وادي التيم (حاصبيا وراشيا) ولم يكن لهم بد من أن يشاركوا في الحروب والفتن التي استعرت بين أمراء الشهابيين وأعدائهم من العثمانيين وغيرهم وكانت هذه المشاركة تجر عليهم أحياناً أذى كثيراً، بل إنهم اضطروا في بعض الأحيان إلى قتال الشهابيين أنفسهم.

وبعد تطواف طويل وخطوب جمة استقرت عشيرة آل نكد في بلدة (عبية) وهي من قضاء الشوف (إلى الجنوب الغربي من عاليه والشمال الغربي من بيت الدين)، وقد جاوروا في هذه البلدة التنوخيين من آل أمين الدين.

كان مولد فقيدنا بمدينة بيروت في السابع عشر من ربيع الثاني سنة أربع وثلاثمئة وألف للهجرة والموافقة للثالث عشر من كانون الثاني سنة سبع وثمانين وثمانمئة وألف ميلادية ١٨٨٧م، ويذكر الفقيد في ترجمته الذاتية أن خوف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللبنانيين من الضرائب والتكاليف حمل أسرته على قيد مولده في قرية كفر فاقود من قضاء الشوف وكانت هذه القرية ملكاً للأسرة.

ويذكر الفقيد كذلك أن سليماً ـــ جده لأمه ـــ انتقل إلى بيروت لأسباب سياسية محلية فانتقل معه ابن أخيه وصهره والد الفقيد أمين بن سعيد.

وبدأت مسيرة الفقيد في طريق تلقي العلوم والمعارف في قصبة بعبدا وفي بلدة بيت الدين فتلقى معارفه الأولى في مدارسهما الابتدائية.

فمنذ أن استقلّ جبل لبنان عن ولاية بيروت ادارياً ـــ عقب أحداث ١٨٦٠ وتوقيع الدولة العثمانية اتفاقاً مع دول أوروبا ـــ أصبح لجبل لبنان حكومة تدير أموره ومتصرف تسميه الدولة العثمانية. وكان والد الفقيد يعمل في ظل هذه الحكومة قاضياً في محكمة الاستئناف فاضطرته ظروف عمله أن ينتقل بانتقال مقر الحكومة صيفاً وشتاءً فكان يشتو في بعبدا فإذا جاء الصيف انتقل إلى بلدة بيت الدين وكانت أسرته ترافقه في حله وترحاله.

وقادته خطواته بعد ذلك إلى الكلية العثمانية الإسلامية حيث درس العلوم الإسلامية والقانونية ثم إلى المدرسة العلمانية الفرنسية حيث انكب على دراسة اللغة الفرنسية وبعض العلوم التي كانت حينذاك مقصاة عن المدارس الإسلامية لكونها علوماً عصرية محدثة. ويذكر الفقيد أسماء أساتذته الذين أخذ عنهم العربية والفرنسية ومنهم الشيخ عبد الله البستاني والشيخ مصطفى الغلاييني والأب شارون وأحمد عباس الأزهري، فلما استوفى الفقيد حظاً طيباً من المعرفة القانونية والشرعية انتقل إلى ميدان العمل، فحصل سنة إحدى عشرة وتسعمئة وألف على إجازة قانونية تخوله حق المرافعة أمام المحاكم، ولم تكن مدرسة الحقوق قد أنشئت في ذلك الحين في لبنان وإنما كانت تؤلف لجنة تقوم باختيار المرشح، فإذا لقي منها الرضى منحته إجازة تخوله ممارسة مهنة المحاماة والقضاء، بدأت خطواته الأولى في مجال العمل القانوني سنة اثنتي عشرة وتسعمئة وألف بتسميته كاتباً لدى محكمة الاستئناف الحقوقية وأخذ يرقى السلم الوظيفي فسمي مستنطقاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لدى الهيئة الاتهامية ثم عضواً استئنافياً لدى محكمة الجنايات واستئناف الجزاء (١٩١٥)، ثم وكيلاً لرئاسة هذه المحكمة.

●

وما لبث الفرنسيون أن احتلوا بلاد الشام في أعقاب هزيمة العثمانيين وأحلافهم في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) فبدأت إذ ذاك مرحلة ثانية من حياة الفقيد عرف فيها السجن والأذى مرات، فلم تكن صلته بالفرنسيين طيبة، ومرد ذلك إلى ما عرف به الفقيد من صدق الوطنية وصلابة الرأي واستقامة الخطة. وكانت فاتحة صلاته السيئة بالفرنسيين إقصاءه عن عمله في لبنان بتهمة تحريض جماعة ممن كانوا يعملون في إملاك الأسرة في كفر فاقود على الاعتداء على رئيس مجلس إدارة جبل لبنان حبيب باشا السعد الذي تولى بعد حين رئاسة الجمهورية اللبنانية، وكان الفقيد براء من تهمة التحريض واضطر بعدئذ إلى مفارقة موطنه لبنان واللجوء إلى سورية مع طائفة من رجال لبنان المخلصين للعروبة آثروا الجلاء عن ديارهم التي احتلها الفرنسيون إلى سورية ليكونوا عوناً للدولة العربية الوليدة.

استقبلت سورية عارفاً النكدي ومن نزح معه من لبنان استقبال المرحب، وكان في وسع أي عربي يومذاك أن يقيم في أي بلد يختاره من بلاد الشام ويعمل فيه ويمنح من الحقوق ما لأبناء البلد أنفسهم، وبدأت منذ ذلك الحين مرحلة جديدة حافلة بالنشاط من مراحل حياة الفقيد فتولى طائفة من الوظائف في سورية وبدأ نجمه يسطع وصيته ينتشر بفضل ما عرف به من كفاية قانونية واستقامة لا تشوبها شائبة وصراحة في القول لا تبالي بما تجر وراءها من عواقب وجرأة على مجابهة رموز المستعمر وأعوانه. وكان نشاطه موزعاً بين عمله في سلك القضاء والوظائف الأخرى التي تولاها من جانب وبين المجمع العلمي العربي الذي انتخب عضواً فيه من جانب ثان، وبين عمله في الصحافة الوطنية من جانب ثالث. كما كانت له مشاركته المتميزة في الحياة الاجتماعية والثقافية. وفضلاً عن هذا كله كان يولي وطنه الأصغر لبنان جانباً غير يسير من عنايته واهتمامه.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان أول المناصب التي تولاها الفقيد منذ مقدمه إلى سورية وظيفة المدعي العام في المحكمة الاستئنافية بدمشق، وذلك في مستهل عام ١٩٢٠ للميلاد، وقد اختاره لهذا المنصب وزير العدل إذ ذاك جلال بك زهدي وكانت للفقيد سابق صلة به منذ كان في لبنان. وفي العام نفسه تولى منصبين آخرين فقد نقل أولاً مفتشاً ثانياً في الوزارة عينها ثم رقي إلى منصب مفتش أول، ثم عين سنة ١٩٢٨ مديراً للشؤون الحقوقية في وزارة العدل.

وبدأت بعيد ذلك الصلة تسوء بينه وبين المستعمر الفرنسي بسبب مواقفه الوطنية الصلبة، فلم يكن من المنافقين الحريصين على ممالأة المستعمر والتزلف إليه، وكان من عادته أن لا يحضر أي احتفال يقيمه الفرنسيون، وكان يدعى إلى الأعياد الرسمية الفرنسية ـــ كالاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية ـــ فلا يلبي ويتعلل بشتى المعاذير أو يغادر سورية إلى لبنان، ولم يغفر له المستعمر هذا الموقف وانتهى الأمر بأن طلب المندوب السامي الفرنسي من صنيعتهم الدولة القائمة يومذاك أن تنقل النكدي من دمشق إلى حلب مدعياً عاماً، وكان هذا النقل بمثابة عقوبة تنزل بالفقيد جزاء مواقفه الوطنية، فلا غرو أن يرفض هذا النقل بإباء ويؤثر الاستقالة من منصبه على الاذعان لمشيئة المستعمر، وكان ذلك عام ثلاثين وتسعمئة وألف، وحاول أصدقاؤه ثنيه عن تقديم استقالته حرصاً على الانتفاع من كفايته القانونية وعلى عدم حرمانه من راتبه التقاعدي ولكن الفقيد أصر على موقفه ـــ وهو الذي عرف بصلابة العود وقوة الشكيمة والأنفة ـــ وضرب عرض الحائط بالمنصب وبالراتب التقاعدي.

ويذكر أصدقاء الفقيد جملة من مآثره يوم تولى مناصبه القانونية في ظل الاستعمار ويشيدون بمواقفه الوطنية ونزاهته أيام كانت للمستعمر الكلمة العليا. لقد كان للفقيد أياد مشكورة في تنظيم القضاء ورفع مستواه وجعله بمنأى عن عوامل الفساد والرشوة والحيلولة دون خضوعه لتوجيهات المستعمر وتدخلاته، فكان يقصي عن مناصب القضاء من لم تثبت كفايتهم ودرايتهم وذوي النفوس الضعيفة، ويختار مكانهم من يأنس فيهم الكافية والنزاهة، وقد حال أكثر من مرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دون تدخل المستشار العدلي الفرنسي في إنفاذ إجراءات القضاء القانونية وأحكامه، بل لقد بلغ من قوة شكيمته وصلابة موقفه إزاء هذا التدخل أن تهدد ذات يوم المستشار بإلقائه من حالق إن هو لم يعتذر لما بدر منه إزاءه وإزاء زملائه. ويسوق صديق الفقيد وزميله في العمل الأستاذ سامي العظم من أخبار الفقيد ما يبرز مواقفه الوطنية الصادقة وحرصه على انفاذ القوانين بدقة ونزاهة مثاليتين وتحديه رجال المستعمر وأوامره.

لم يكن الفقيد منصرفاً في هذه الحقبة إلى أداء مهامه القضائية فحسب، وإنما كانت له مشاركة في جوانب أخرى جعلت ذكره يعلو، ومكانته تتعاظم في نفوس القوم فهو على رغم انتقاله من لبنان إلى سورية لم يغفل قضايا قومه الأدنين في لبنان فكان يرعى شؤونهم ويسهم في إنشاء المدارس ودور اليتامى. وفي سورية بدأت صلته تتوطد مع أقطاب الكتلة الوطنية التي كانت يومذاك أبرز الأحزاب المناهضة للاستعمار الفرنسي، وفي الميدان الثقافي اتجه الفقيد إلى كتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والفكرية في مجلة المجمع العلمي العربي كما انصرف إلى تعريب المصطلحات. وكان في الوقت عينه يدرّس مادة علم الاجتماع في معهد الحقوق العربي بدمشق وكان أعضاء المجمع قد انتخبوا الفقيد عضواً عاملاً في المجمع في العشرين من شهر آذار عام ثلاثة وعشرين وتسعمئة وألف ١٩٢٣. وكان يرأس المجمع آنذاك المرحوم الأستاذ محمد كرد علي وهو الذي رشح النكدي لعضوية المجمع، وكان المجمع العلمي العربي يومذاك حديث النشأة، فقد تأسس إبان الحكم الفيصلي سنة ألف وتسعمئة وتسع عشرة وحل محل ما كان يعرف من قبل بديوان المعارف، وظهرت مجلته عام ألف وتسعمئة وواحد وعشرين. ومنذ أن أصبح الفقيد عضواً عاملاً في المجمع لم يتوقف عن الكتابة في مجلته حتى أواخر أيامه، وكانت له مشاركة نشطة في أعمال لجنة التعريب. وقد ظل الفقيد عضواً عاملاً في المجمع طوال مدة إقامته بدمشق. فلما اضطرته الأحوال إلى مغادرة سورية إلى لبنان أصبح عضواً مراسلاً في المجمع ثم أعيد انتخابه مرة أخرى بعد عودته إلى دمشق أيام الحكم الوطني خلفاً للمرحوم الأستاذ رشيد بقدونس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصدر المرسوم القاضي بتعيينه في أواخر تشرين الأول من عام ألف وتسعمئة وأربعة وأربعين .

●

تبدأ بتخلي الفقيد عن منصبه في القضاء عام ثلاثين وتسعمئة وألف مرحلة ثالثة من حياته حافلة بالخصب والعطاء والنضال الوطني ، فما أن تخلى الفقيد عن عمله في وزارة العدل حتى تلقفه رجال الكتلة الوطنية الذين عرفوا فيه المناضل الصادق الوطنية والعامل الجاد في سبيل العروبة فأقاموا له حفلاً تكريمياً ثم عهدوا إليه بتولي رئاسة تحرير جريدة (الأيام) التي أصدروها عام واحد وثلاثين وتسعمئة وألف ، فأخذ النكدي يكتب مقالاتها الافتتاحية متعقباً المستعمرين ، ناقداً سياستهم الجائرة وإجراءاتهم التعسفية إزاء أبناء البلاد وسيرتهم المغايرة لميثاق عصبة الأمم ، في صراحة وجرأة انتزعتا إعجاب الوطنيين المخلصين وأثارتا حفيظة المندوب السامي وأعوانه . ومما يذكره من كانوا يوالون قراءة مقالاته الملتهبة هذه مقاله الذي رد فيه على ما زعمه المندوب السامي (بونسو) ـــ وقد نشرته الصحف الموالية للمستعمر يومئذ ـــ من أنه هو الذي يصنع مستقبل لبنان وسورية وكان عنوان مقالة الفقيد (المستقبل لله يا مسيو بونسو) ، وكان لهذا المقال أشد الوقع في نفوس المستعمر ومن حطب في حبله في حين استقبله أبناء الوطن المخلصين بإعجاب وتقدير عظيمين ، حتى إذا ضاق صدر القيم على شؤون البلاد بالنكدي ومقالاته العنيفة أصدر أمره بإغلاق الصحيفة وبدأت جريدة (الأيام) تعاني منذ ذلك اليوم من مضايقات المندوب السامي ، لا تصدر إلا لتغلق ، وتصدر باسمها الجديد (اليوم) حقبة فلا تلبث أن تتناولها يد التعطيل والإغلاق . ولم يجد النكدي بعد حين بداً من التخلي عن عمله الصحفي ليتولى الأستاذ نصوح بابيل شراء الجريدة وإدارتها .

وقد أتاح له تحرره من العمل الوظيفي في الحقبة عينها أن يعنى بأمور ذويه في لبنان ، فقام بطائفة من الأمور لإصلاح أمور معيشتهم وكان قد تولى الوقف التنوخي عام واحد وعشرين وتسعمئة وألف ، ثم آلت إليه بعد ذلك بأعوام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أوقاف قومه كلها، فانكب على إصلاح أمور الأوقاف بما يكفل عدم التلاعب بأموالها والسعي في تنمية مواردها واستطاع بحنكته وحسن تدبيره تنمية مواردها واشترى العديد من الأبنية التي رصد ريعها لأوقاف بني معروف في مختلف مناطق لبنان وفي عبيه خاصة، وعني إلى ذلك بإعادة إنشاء المدرسة الداودية في عبيه عام واحد وثلاثين وتسعمئة وألف، وتزويدها بالأساتذة الكفاة وأنشأ معها زهاء ثلاث وثلاثين مدرسة في ديار قومه: في وادي التيم وأقضية الشوف وعاليه والمتن وفي بيروت نفسها. وكان لا يزال يزود القائمين على التدريس في هذه المدارس بنصائحه ويوجههم إلى السبل المثلى في تلقين المعارف مع توجيه عناية خاصة إلى اللغة العربية، ومن كلماته المحفوظة بهذا الصدد قوله يخاطب المدرسين: «كونوا قدوة لتلامذتكم فالولد يتعلم بالتقليد والاقتداء أكثر منه بالمواعظ».

●

مرحلة رابعة من حياة الراحل الكريم تبدأ بعودته إلى ممارسة وظائف الدولة على أثر ما أبدته الدولة المستعمرة من ملاينة للوطنيين من زعماء سورية حين أحست بتعاظم خطرهم، فلم يجد الفقيد ضيراً في تولي المناصب التي عرضت عليه، فتولى أولاً إدارة المعرض السوري عام ستة وثلاثين وتسعمئة وألف وقضى في هذا المنصب زهاء ستة أشهر، وفي السنة التي تلتها سمي مديراً عاماً لوزارة العدل.

وبقيام الحرب العالمية الثانية عام تسعة وثلاثين وتسعمئة وألف وانقسام الفرنسيين بعد حين إلى فئتين احداهما توالي المحتلين الألمان والثانية تعاديهم أصبحت سورية وغيرها من مستعمرات فرنسا موضع نزاع بين هاتين الفئتين، وقد نال الفقيد أذى كثير من جراء هذا النزاع، فحين سيطر الفرنسيون الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الفرنسيين الأحرار بقيادة الجنرال دوغول على بلاد الشام وزجوا أحرار البلاد في السجون والمعتقلات كان الفقيد واحداً من هؤلاء المعتقلين بسبب مواقفه الوطنية، فزج به أولاً في معتقل المية ومية جنوبي لبنان عام واحد وأربعين وتسعمئة وألف ثم نقل إلى سجن راشيا، ومن جراء تحديه لسجانيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإصراره على مواقفه الوطنية ورفضه ممالأتهم والإقرار بسلطانهم وإمعاناً في إيذائه نقلوه في سيارة مكشوفة إلى تدمر . وقد بقي في معتقله هذا إلى قبيل نهاية الحرب العالمية وطلائع العهد الاستقلالي في سورية عام ثلاثة وأربعين وتسعمئة وألف .

ويروي صديق الفقيد وزميله في المعتقل الاستاذ عبد الله القبرصي من أخباره في معتقل المية ومية ما يملأ النفس إعجاباً بإبائه وأنفته ومواقفه المتحدية وقدرته على احتمال الأذى وانصرافه إلى مسامرة رفاقه في المعتقل وإمتاعهم بأحاديثه ومروياته الأدبية ، ومن حديثه عنه قوله : «وفي ناديه في المية وميه لم تكن السياسة وحدها شغلنا الشاغل أو صحننا اليومي ، فعارف النكدي موسوعة أدبية وتاريخية ولاهوتية فمن القهر والاحتمال والحرمان من أغلى نعم الحياة : ـــ الحرية ـــ كان يخلق أجواء الانشراح النفسي والفكري» .

وما أن تولى الوطنيون إدارة مقاليد البلاد قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية ـــ وأقدام المستعمر لم تزايل بعد أرض الوطن ـــ حتى أعادوا النكدي إلى منصبه مديراً عاماً لوزارة العدل وظل يتولى هذا المنصب حتى أواسط عام ستة وأربعين وتسعمئة وألف .

وأثناء توليه هذا المنصب في سنة خمس وأربعين وتسعمئة وألف أوكلت إليه مهمتان : أولاهما : المديرية العامة للشرطة والأمن العام ، وثانيهما المديرية العامة للاعاشة ، وهي وزارة استحدثت في الحرب العالمية الثانية لضبط الأمور التموينية .

ويذكر أصدقاء الفقيد وعارفوه أنه حين تولى مديرية الشرطة والأمن العام كان مثالاً للصرامة والشدة وتحرّي النزاهة وقد انصرف إلى تنظيم أمور الشرطة ـــ صنيعه حين تولى القضاء ـــ فأحدث ما عرف بأقسام الشرطة في أحياء المدينة واختار لإدارة هذه الأقسام من عرفوا بالكفاية والحزم والنزاهة من رجال الشرطة . وروى أحد أصدقائه أنه ألف لجنة من خمسة أعضاء مهمتها إعداد قائمة بأسماء المرتشين والفاسدين من رجال الشرطة تمهيداً لتسريحهم ثم بلغه أن اللجنة التي اختارها ليست براء من تهمة الفساد فألحق أسماء أعضائها بالقائمة التي أعدتها . وكانت صرامته المسرفة في ضبط شؤون الأمن وملاحقته من يعيثون فساداً في البلاد مدعاة لاصطدامه بأولي الأمور في بعض الأحيان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي أول شهر آب عام ستة وأربعين وتسعمئة وألف سمي الفقيد رئيساً لمجلس شورى الدولة، وكان خلال توليه هذا المنصب حريصاً على إحقاق الحق وانصاف ذوي الظلامات ومحاسبة دوائر الدولة على ما ترتكب من أخطاء لدى إنفاذها الأنظمة والقوانين. وقد ظل الفقيد يشغل هذا المنصب حتى أواخر عام ثمانية وأربعين وتسعمئة وألف حيث كانت بانتظار الفقيد مهمة أخرى على جانب كبير من الخطورة، فقد حدث يومذاك خطب جلل لم يكن ليتصدى له إلا النكدي، إذ نشبت في ذلك الوقت فتنة عارمة في جبل العرب سالت من جرائها الدماء واضطربت الأمور فلم يجد أولو الأمر خيراً من النكدي لإطفاء نار تلك الفتنة وإقرار الأمن في ربوع الجبل، فسمي محافظاً ونائباً للحاكم العسكري فيه، ومنح سلطاناً واسعاً للنهوض بهذا العبء.

قدم النكدي الجبل وهو يموج بالاضطراب فاستطاع بحنكته وحسن تدبيره إعادة الأمن إلى نصابه واصلاح ذات البين، وقد أشاد المجاهد الكبير سلطان الأطرش في كلمته التي ألقاها يوم تأبين النكدي بأياديه في إطفاء نار الفتنة ورأب الصدع وإصلاح ذات البين بين الفرقاء المختصمين.

وإلى جانب اضطلاعه بهذه المهمة قام الفقيد بطائفة من الاصلاحات والمشروعات الاجتماعية فأنشأ في السويداء داراً لليتيم على غرار الدار التي أنشأها في عبيه. وقد ظل في منصبه هذا حتى أواسط أيلول عام تسعة وأربعين وتسعمئة وألف حيث أحيل إلى التقاعد بعد أن ذرّف على الستين لينهي بذلك مسيرته الخصبة في العمل الوظيفي.

●

لم يكن بلوغ النكدي سن التقاعد ليخمد نشاطه المتوقد ويجعله يخلد إلى الراحة والدعة فإن همم العظام لا تفلّ حدّها أعباء السنين، وكان للنكدي من همته المتوثبة ما يدفعه إلى مزيد من العمل ومزيد من العطاء.

وقد آثر الفقيد بعد إحالته إلى التقاعد أن يعود إلى وطنه الأصغر ليستقر في بلدته عبية، وقد امتدت هذه المرحلة الأخيرة من حياة الفقيد زهاء ربع قرن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حتى وافته المنية سنة خمس وسبعين وتسعمئة وألف. على أنه كان إبان هذه الحقبة الطويلة يختلف إلى دمشق لحضور جلسات المجمع واجتماعات لجانه، وكان يوافي مجلة المجمع بمقالاته على نحو متصل، وكان إلى ذلك يختلف إلى المناطق اللبنانية التي استقر فيها بنو معروف، يتفقد شؤونهم ويزودهم بنصائحه وتوجيهاته، وكان ربما يقع الخلف بينه وبين بعض رؤساء الطائفة أحياناً من جراء اختلاف نهجه عن نهجهم، وكان له مجلس في بيروت يغشاه مع لفيف من إخوانه يوم الاثنين من كل أسبوع في بيت المجاهد محمد علي الطاهر، وكان وجود النكدي في هذا المجلس يشيع فيه جواً نديا يفوح فيه عبق الفكر والأدب والثقافة، كان القوم يتجاذبون الأحاديث الجادة في شتى الموضوعات، وكان الفقيد فارس الحلبة المجلي في امتاع الحضور بأحاديثه وطرائفه الأدبية. وكان إلى هذا كله يختلف بانتظام إلى دار الكتب الوطنية مطوفاً في شتى المراجع والمصادر. وكان في تلك الحقبة يشارك في عضوية لجنة التعريب في المجمع فكان همه البحث عن ألفاظ ومصطلحات للألفاظ الدخيلة في اللغة العربية.

على أن شغله الشاغل في تلك الحقبة كان العناية بأحوال قومه في عبيه وغيرها، وقد عني الفقيد عناية خاصة بالأيتام، وهذه العناية آية على ما كان ينطوي عليه من روح التعاطف الانساني مع من فقدوا عائلهم وذويهم. وقد رأيناه طوال حياته متعاطفاً مع المقهورين والمظلومين والضعفاء الذين ينالهم الضر من الأقوياء. وقد بدأت عنايته بالأيتام منذ عام تسعة وثلاثين وتسعمئة وألف حين أنشأ في عبيه داراً للأيتام سماها (بيت اليتيم) فلما استقر في عبيه أولى بيت اليتيم قسطاً كبيراً من عنايته وأدر عليه الأموال، ثم أنشأ بعد ذلك داراً لليتيم في بيروت وكان قد أنشأ كذلك داراً لليتيم في السويداء حين سمي محافظاً لجبل العرب ثم تخلى عنها فيما بعد للحكومة السورية. وعني إلى ذلك بالمنشآت التي كان يرعاها قبل مثل المدرسة الداودية للبنين والمدرسة الداودية للبنات في عبية ـــ نسبة إلى داود باشا أول متصرف لجبل لبنان ـــ والمدرسة المعنية المختلطة في بيروت، والوقف التنوخي ودار العجزة. وقد فصل زميله الأستاذ أمين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أبو عز الدين القول في هذه المنجزات في كلمته التي أرسلها إلى اللجنة التي عنيت بتكريم الفقيد وتأبينه.

ومن أجل العناية بأوقاف العشيرة أصدر النكدي بعد عودته إلى لبنان مطبوعة أسماها (الضحى) كان ينشر فيها كل ما يتصل بأوقاف قومه والمعونات والتبرعات التي كان يتلقاها فضلاً عن عنايتها بالجواب العلمية والاجتماعية.

وفي عام ثمانية وخمسين من هذا القرن تهب على منطقة الشوف رياح العنف ويذرّ النزاع الدموي قرنه بين أسرتين من بني معروف كانتا تتنازعان السلطة، فلا يقف الفقيد من هذا النزاع موقف المتفرج وإنما يبادر إلى إطفاء الفتنة ويعرض نفسه للقتل من أجل ذلك فيقف بين الفريقين المقتتلين ويناديهم قائلاً: «إذا أردتم استمرار القتال فعليكم أن تقتلوني أولاً وبعدها تواصلون قتالكم». ويكون لمبادرته الشجاعة أثرها في نفوس القوم فيتوقفون عن الاقتتال.

وعلى أثر وقوع الخلاف بين النكدي وبعض مشايخ قومه آثر التخلي للمجلس المذهبي عما كان يتولاه من الإشراف على أوقاف بني معروف ومدارسها، واكتفى بالإشراف على بيت اليتيم في عبية.

وفي صباح الأحد الثالث والعشرين من شهر آذار عام خمسة وسبعين وتسعمئة وألف توفي النكدي ببيروت دون أن يلم به أي مرض، فقد ذكر من صحبوه في ساعاته الأخيرة أنه كان في اليوم السابق يؤدي واجبه الاجتماعي في بيت اليتيم وكان كعادته منتصب القامة مشرق الوجه ثابت الخطى. وكان قد قضى شطراً من الليلة السابقة لوفاته لدى أحد أقاربه، وكان حديثه شيقاً جذاباً كعادته، ومن هنا كانت المفاجأة مذهلة بوفاته صباح اليوم التالي وكان لنبأ وفاته أشد الوقع في نفوس ذويه وأصدقائه وعارفيه.

وعلى رغم أن الفقيد أوصى بأن تكون مراسم تشييعه بسيطة خالية من العويل والندب فقد أقيم له مأتم حافل في اليوم التالي لوفاته في بلدته عبية شارك فيه الألوف من المشيعين الذين قدموا من مختلف مناطق لبنان ومن بلاد الشام،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد شهرين من وفاته في الخامس والعشرين من شهر أيار عام خمسة وسبعين وتسعمئة وألف أقيم له حفل تأبيني ضخم في عبية برعاية رئيس الجمهورية اللبنانية الأستاذ سليمان فرنجية، وقد ألقيت في هذا الحفل عشرات من الكلمات في بيان مآثر الفقيد ومراحل حياته وآثاره. وقد شارك القطر السوري في هذا الحفل بكلمتين إحداهما باسم المجمع ألقاها الزميل المجمعي الدكتور عدنان الخطيب والثانية باسم وزارة العدل السورية ألقاها الأستاذ منير سلطان وكان يومئذ معاوناً لوزير العدل.

كان الفقيد قد كتب وصيته قبل وفاته بزمن، وفي شهر نيسان من عام أربعة وسبعين وتسعمئة وألف نشر جانباً منها يتصل بتشييع جثمانه والتصرف بأمواله في مجلة (الميثاق) وأحب أن أعيد على أسماعكم هذه الوصية لأنها تكشف عن جوانب من خلق الفقيد ومبادئه ونفوره من المظاهر الفارغة:

«قلنا لرجل تقدمت به السن: هل كتبت وصيتك؟».

قال: أيجوز للمؤمن أن يبيت ليلته إلا ووصيته تحت وسادته! لقد أوصيت وأنا في شرخ الشباب في الحادية والعشرين فكيف بي وقد خنقت الثمانين وأشرفت على التسعين! قلنا: وكيف أوصيت؟ إننا لا نسألك بم أوصيت من مال فهذا شأنك ولكن نريد أن نعرف ما يتعلق بالمراسم الاجتماعية والدينية وملابساتها، فلعله يكون بذلك أسوة لنا.

قال: هذا شيء خاص ارتضيته لنفسي ما أحسبكم تطيقونه.

قلنا: هات، ونحن نسمع ونرى.

قال: رأيت الناس تزعجهم هذه المناحات وأكثرها لا موجب له ينعى بشخص لا علاقة لهم به، وقد يكونون لا يعرفونه. يجيء من يجيء متكلفاً مكرهاً، ويعود متذمراً منزعجاً. هذا شيء لا أريده فلا أريد أن أنعى فأزعج الناس فمن جاء من ذات نفسه فله أجره.

قلنا: هذا صعب. قال: كل نفس وما اختارت. قلنا: وبعد. قال: وهذا الندب والصياح لا أحبه فلا أريده فجلال الموت بالصمت، وهذه التوابيت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الضخمة الفخمة التي تراد للأبهة والعظمة ولم يكن لنا بها عهد من قبل، إنها مظاهر فارغة لا تعجبني، بحسبي كفن ألف به أو تابوت عادي يصنعه نجار على ما كان يقع من قبل هذه السنوات الأخيرات.

قلنا: هذا قد يكون له وجه.

قال: وهذه (الترجومة) التي يسمونها صلاة وليست صلاة بل هي تأبين، تقوم على غير أساس من أسس المذهب، وفيها من المبالغات التي لا يستسيغها عقل ولا منطق لا تعجبني بل أنا أمقتها، وفي غنى عنها، وكان لها زمن وانقضى.

قلنا: وبعد. قال: يجمع ما كان ممكناً أن يصرف من مال ويضاف إليه مثله وينفق في سبيل من سبل الخير.

هذه وصيتي وهذا ما أريد وأشدد عليه راجياً العمل به تنفيذاً لرغبتي ووصية المرء مقدسة واجبة التنفيذ والتحقيق.

إذا وجد الشيخ في نفسه ... نشاطاً فذلك موت خفي
ألست ترى أن ضوء السراج ... له لهب قبل أن ينطفي

شخصيته ومآثره

حين نحاول أن نستجلي السمات المميزة لشخصية فقيدنا النكدي فإن استعراض سيرة حياته قد أغنانا عن إطالة الحديث في هذه الجانب، فهذه السيرة تنطق بما جبل عليه الغائب الكبير من شمائل وخلال لا يتحلى بها إلا قلة من الناس، فهو رجل لا كالرجال، وقلما يجود الزمان بنظرائه، ولا أقول هذا من قبيل ذكر محاسن الموتى وإنما من قبيل الإقرار بالحق.

كانت للفقيد شخصية مسيطرة تأسر من يتصل بها من أصدقائه وخصومه على السواء، وكان يملأ قلوب القوم مهابة لشخصه وتقديراً لمكانته.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان أبرز ما يتسم به فقيدنا نشاطه الدائب وهمته المتوثبة وحيويته المتدفقة فكان طوال حياته المديدة شعلة متقدة من النشاط لم تنطفئ إلا بانطفاء حياته.

وعرف فيه أصدقاؤه ومعاصروه نزاهته النقية الصارمة فيما تولاه من أعمال يكون أربابها في العادة عرضة لإغراء الرشوة والطمع في الكسب غير المشروع، فظلت صحيفة عمله طوال حياته بيضاء نقية لا تشوبها شائبة.

وعرفوا فيه الغيرة على إحقاق الحق، والحرص على إقامة العدل وإنصاف ذوي الظلامات، ولا سيما إبان عمله في وزارة العدل، وقد عرضته هذه الخلال لمواقف صعبة وكان النكدي يخرج من هذا الامتحان ظافراً في جميع الأحوال. وكان يرفض بحزم ما يتوسل به بعضهم من صنوف الوساطة والشفاعة بغية وصولهم إلى منزلة لا يستحقونها.

وعرفوا فيه عروبة صادقة لا زيف فيها وشعوراً وطنياً مخلصاً لا وهن فيه. ولطالما حاول أرباب السلطان إغراءه بالتقرب إليهم بوسائل شتى فما أنجحت وسائلهم وعجموا عوده فألفوه صلب المراس لا تلين له شكيمة فانثنوا يائسين من قدرتهم على استمالته وجعله صنيعة لهم.

وقد جعله شعوره الوطني المتطرف يحجم عن حضور أي حفل يقيمه أولو السلطان يومئذ ويعرض نفسه من جراء ذلك لنقمتهم وبطشهم ولم يكن بريق المناصب الرفيعة ليغريه بممالأتهم أو يوهن من صلابة شعوره الوطني. وقد شهد له بذلك صديقه الشيخ طه الولي فقال في حفل تأبينه: «عندما كانت الوظيفة الحكومية شركاً يتصيد به الانتداب ضعفاء النفوس من أبناء البلاد لعزلهم عن الصف الوطني واستعمالهم أداة لتنفيذ مآربه الاستعمارية فإن عارفاً النكدي كان يستعصي على هذا الشراك ويرفض بكل إباء وشمم أن يكون مطية لاهواء السلطة الأجنبية وأغراضها السياسية.

وعرفوا فيه إلى ذلك كله تشبثاً عنيداً بالمبادئ والقيم التي يؤمن بها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وشجاعة وجرأة على مجابهة الخصوم وتحديهم قل أن يتوافر مثلهما في الرجال، وما استطاعت قوى خصومه من المستعمرين ومن حطب في حبلهم أن تثنيه عن القيام بما كانت تمليه عليه مبادئه أو تفلّ من غربه.

وبسبب من تشبثه بمبادئه وثباته على مواقفه حين كان يرى أنه على الحق لحق به أذى كثير وتعرض لهجمات شرسة ولكنه ما كان يبالي بذلك كله، حسبه أنه أراح ضميره وأدى ما يتوجب عليه. ومن المواقف التي تذكر له يوم كان يتولى إدارة وزارة العدل إصراره على تسريح جميع القضاة الذين ثبت عنده فساد ضمائرهم أو عدم كفايتهم القانونية، وقد أعد مشروع مرسوم بتسريحهم فرغب أولو الأمر يومئذ في الشفاعة لبعض من كان يلوذ بهم من القضاة ولكن النكدي أصر على توقيع المرسوم كما أعده أو يعتزل منصبه، واضطر المسؤولون أخيراً إلى إصدار المرسوم كما أعده بعد أن أخفقت جميع المحاولات في ثنيه عن موقفه وإلانة عوده الصلب.

وعرفوا فيه قدرته العجيبة على احتمال المكاره والصبر على الشدائد. والذين زاملوه في معتقله لم يملكوا أنفسهم من الاعجاب بروحه العالية يومئذ وصبره على الأذى وسوء المعاملة وقسوة السجانين وقد أعانته هذه الخلال على أن يحيل المعتقل إلى منتدى أدبي ومجالس للسمر والمنادمة.

وعرفوا فيه فضلاً عما ذكرت الحدب على المستضعفين واليتامى والبر بالأسرة والقوم، ودور الأيتام والعجزة التي أنشأها في لبنان وسورية شاهد على تعاطفه مع من فقدوا ذويهم وعلى من أقعدتهم السن والمرض عن مزاولة عمل يرتزقون منه.

وعرفوا فيه كذلك إيثار الجد على الهزل فما كان يجنح إلى المزاح والدعابة إلا في نادر الأحوال، وغاية ما كانت الدعابة تحمله عليه الابتسامة الخفيفة. ولا يذكر أحد من عارفيه أنه رآه ضاحكاً في مجلس من مجالسه، حتى حين يكون بين أهله وخاصة صحبه. ويذكر صديقه طه الولي أنه حاول ذات يوم مباسطته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في موضوع لا يحتمل المزاح، فقال له النكدي: «يا شيخ طه، أعرض عن هذا فإني لا أقبل الجد في معرض المزاح ولا المزاح في معرض الجد».

ويتصل بهذه الخلة كراهيته المسرفة للنفاق والمراءاة، وكان في سريرته وعلانيته سواء، وكان صريحاً يجهر بما يراه ولا يبالي بموقع كلامه من نفوس القوم، وكان لذلك يكره المنافقين والمرائين، وينفر من مجالستهم ويوجه إليهم لاذع القول ويحذر الناس من صحبتهم.

وكان همه طوال حياته السعي وراء الحقيقة وطلبها في مختلف مظانها سواء أكانت حقيقة تاريخية أم دينية. ويشهد له تلميذه الأستاذ شفيق يحيى بأن الساعين وراء الحقائق التاريخية كانوا كثيراً ما يأتونه ليسألوه رأيه في بعض أحداث التاريخ، فكانوا يكتشفون خطأهم في معظم ما كانوا يحملونه من نظرات وآراء.

وبسبب من حرصه على الحقيقة كان يكره الانحياز إلى رأي قبل أن يتحقق من صحته ولا يحكم على صواب رأي أو خطئه إلا بعد أن يمتحنه ويتفحصه بدقة. يروي الأستاذ شفيق يحيى أن الفقيد لمس يوماً من أحد أصدقائه تحيزاً شديداً لبعض القوم فقال له: «أريدك قاضياً لا محامياً، قاضياً تنصف الفريقين لا محامياً يتخذ جانب فريق واحد إلا إذا تأكدت أن هذا الجانب على حق».

وكان النكدي شديد الاعتزاز بكرامته أبياً شامخ النفس عيافاً للضيم يأبى أن يريق ماء وجهه على أعتاب أولي السلطان فإذا حاول أحد مهما تبلغ منزلته النيل من كرامته غضب أشد الغضب ورد على الإهانة أعنف رد. وكلمة عارضة كانت خليقة بأن تحيله من إنسان وديع لطيف إلى ليث عبوس متوثب للانقضاض والفتك. فكان القوم لذلك يتحامون التعرض له والإقدام على أمر من شأنه أن يثير غضبه.

أما شغفه بالتزود من ألوان المعرفة فأمر لفت نظر جميع أصحابه فكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتاب خير جليس له، وما كان يمل مطالعة الكتب والرجوع إلى مختلف مناهل العلم، وكان لا يزال يوصي قومه بالسير في هذه الطريق ويحثهم على طلب العلم والتزود بالمعرفة فهي الطريق المثلى لتكوين المواطن السوي الخليق بالاحترام، وقد رأيناه ينشئ العديد من المدارس لنشر العلم بين أبناء عشيرته.

فإذا شئنا أن نتحدث عن مآثره يوم تولى القضاء والعمل الإداري فسنرى أننا بإزاء رجل يمثل الرجولة بأسمى ما فيها في حقبة عز فيها الرجال والتحف جل العاملين في القضاء والإدارة بثوب الخنوع والمداهنة والممالأة للسلطة القائمة. أما فقيدنا فقد وجد فيه القوم الإداري الحازم الذي لا يحابي ولا ينتقص حقاً ولا يغمض العين عن فساد أو تهاون، ووجدوا فيه كذلك رجل القضاء النزيه الصارم الذي لا يحيد عما يراه حقاً حتى لو اضطر إلى مجابهة أولي السلطان، ولم يكن يحفل بالتهديد والوعيد ولم يكن كذلك ممن تستهويهم أساليب الترغيب والإغراء بالمناصب الرفيعة. كان فوق هذا كله. همه توخي العدل وإحقاق الحق واستقامة الجادة وتطهير السلك القضائي والإداري من الفاسدين والمرتشين. وقد سرد الأستاذ منير سلطان في كلمته التي ألقاها في حفل تكريمه طائفة من مآثره يوم تولى القضاء بإقصائه نفراً من القضاة الذين لا يحوزون المؤهلات التي ينبغي أن يتحلى بها القضاة واستبداله بهم طائفة من الشبان المؤهلين وإصراره على تسريح القضاة غير الكفاة رغم الشفاعات والوساطات واصطدامه بالسلطة المنتدبة في مناسبات كثيرة من جراء إصراره على سلامة القضاء ونزاهته وتطهيره من الشوائب.

وإلى جانب هذا كله كان النكدي يولي الخدمات الاجتماعية جانباً من وقته، وكان همه الأول منصرفاً إلى العناية باليتامى فأنشأ بيت اليتيم في كل من بيروت وعبية والسويداء. وهذه العناية تظهرنا على جانب من جوانب شخصية الفقيد يبعث على الدهشة وينافي صورته التي انطبعت في نفوس القوم، فهو عند عامة الناس ذلك الصارم الحازم العنيف في محاسبة المقصرين والفاسدين، ولكن كان في قلب الفقيد حيز تملأه الرحمة والعطف والحدب على المستضعفين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واليتامى والمعوزين. فكذلك كان النكدي يجمع في خلقه ما يبدو أنه لون من التناقض، يجمع الصرامة والشدة إلى الرحمة والرأفة وتلك أخلاق الرجل الحق: يلين في موضع اللين ويشتد في موضع الشدة.

آثـاره

بعد هذه الإلمامة بسيرة الفقيد وملامح شخصيته أقف وقفة قصيرة أعرف فيها بأبرز آثاره في شتى المجالات التي خاضها.

إن آثار الفقيد تنيف على مائة وسبعين بين كتاب ومقالة وتعريف بكتب ونقد، وقد نشر جل مقالاته في مجلة المجمع، ويمكن النظر في هذه الآثار من خلال الأطر التي تنتظمها وهي:

١ ــ أبحاث في الأدب والنقد والتراجم الأدبية.
٢ ــ أبحاث في التاريخ والتراجم التاريخية.
٣ ــ أبحاث في علم الاجتماع والاقتصاد.
٤ ــ مباحث في اللغة والنحو والإملاء.
٥ ــ أبحاث قانونية وشرعية.
٦ ــ مقالات سياسية وقومية.
٧ ــ مقالات في موضوعات شتى.

إن استعراض هذه الأطر ينبئنا بتنوع اهتمامات الفقيد ومعارفه ولم يكن انصرافه إلى دراسة القانون ليحول دون ارتياده مناهل أخرى تروي ظمأه إلى المعرفة المتشعبة الآفاق، فقد كان الفقيد طلعة مشبعاً بنهم ثقافي يدفعه إلى إخصاب زاده الثقافي بمطالعة شتى الكتب التي تقع تحت يده. وهذه المطالعة الدائبة جعلته قادراً على إصدار الأحكام النقدية وهي لا تتناول الآثار القانونية وحدها بل تجاوزها إلى المؤلفات الأدبية والتاريخية والقومية وغيرها. وقلما كان يخلو عدد من أعداد مجلة المجمع من مقالة له يعرف فيها بكتاب قرأه ثم يثبت ما يبدو له من آراء حوله. وحين تولى لجنة المصطلحات في المجمع ازدادت عنايته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

باللغة ووجه همه إلى إيجاد المصطلحات الجديدة وتصحيح بعض الأخطاء اللغوية الشائعة .

وإن الوقوف عند كل أثر من آثاره أمر من الصعوبة بمكان لما ذكرته من كثرة ما كتبه من مقالات وأبحاث ، ولكنني سأنتهج نهجاً انتقائياً في بيان بعض نظراته ومواقفه الفكرية من خلال ما كتبه .

ففي محاضرته التي تناول فيها العامية والفصحى ومقالاته حول الموضوع عينه (مجلة المجمع الأعداد : ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٤) يؤكد الفقيد على المقولة التي تجعل اللغة أبرز مقومات وحدة الأمة ، ويرفض ما تذهب إليه بعض النظريات الغالية التي تقيم وحدة الأمة على صفاء العرق ووحدة الدم ، ويقول في هذا : « فليس في الأمم أمة يجمعها الدم الواحد وإنما هي جماعات جمعتها اللغة الواحدة » ويعرض إلى أسباب تسرب اللحن والخطأ إلى اللغة العربية الفصحى ، وهذا الفساد أدى على الزمن إلى نشوء لغتين متمايزتين : العربية الفصحى والعامية ، وهي مشكلة لغوية وقومية في آن واحد . وهو يرد رداً عنيفاً مفحماً على من يحاولون احلال العامية محل الفصحى ويناقش هذا الموضوع مناقشة علمية مستفيضة ، ويبين خطر هذه الدعوة الشعوبية على وحدة الأمة وبناء قوميتها ، ويأتي ببعض المقترحات في محاولة التقريب بين اللغتين وطريق النهوض بمستوى العامية ، ويؤكد على المهمة المنوطة بالمجامع اللغوية لتحقيق النهوض بهذا العبء ، وهو يدحض ما يشيعه بعض الشعوبيين من أن العربية لغة بالغة الصعوبة ولا يتسنى تعلمها إلا بشق الأنفس فيورد أقوالاً لطائفة من المستشرقين في الثناء على اللغة العربية وتأكيد سهولة قواعدها وانضباطها . ومنهم الباحث الفرنسي مارسيه الذي يقول : « من السهل جداً تعلم أصول اللغة العربية ، فقواعدها التي تظهر معقدة لأول نظرة هي قياسية ومضبوطة على نحو عجيب يكاد لا يصدق . فذو الذهن المتوسط يستطيع تحصيلها في أشهر قليلة وبجهد معتدل ، إن الفعل العربي هو لعبة أطفال إذا ما قيس بالفعل اليوناني أو بالفعل الفرنسي . وتقول الدكتورة آنا ماري شيمل : « اللغة العربية لغة موسيقية للغاية ولا أستطيع أن أقول فيها إلا أنها لا بد أن تكون لغة أهل الجنة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي مقالاته التي تناولت الإملاء العربي (مجلة المجمع العددان: ٣٦ و٣٨) يبدو الفقيد حريصاً على الحفاظ على قواعد الإملاء التي أقرها الأقدمون ولا يرى ضرورة لتغييرها أو تبسيطها فهي قواعد واضحة مبسطة لا عسر في تطبيقها، ومن ذلك قواعد كتابة الهمزة وكتابة الألف اللينة مثلاً، وهو يرى أن البحث في تسهيل الإملاء العربي يعد من أغرب الأمور وأبعدها عن خدمة اللغة العربية، ولو قسنا إملاء لغتنا بإملاء بعض اللغات الأجنبية لوجدنا أن الضوابط الإملائية في لغتنا أسهل منها في أي لغة أخرى.

ومن أبحاثه التي تناولت الجوانب القومية محاضرته التي ألقاها في مؤتمر المحامين العرب المعقود بدمشق عام أربعة وأربعين وتسعمئة وألف (نشرت في مجلة المجمع المجلد ٢٠ سنة ١٩٤٥) وتناولت موضوعات ثلاثة هي: العنصر العربي ــ القضاء اللبناني ــ الشرع الإسلامي.

وفي كلمته هذه يجعل الفقيد اللغة أوكد الأواصر التي يقوم عليها بناء القومية، والناس عنده للغتهم أكثر مما هم لآبائهم، ويستشهد بقول الرسول عليه السلام: «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم وإنما هو اللسان، من تكلم العربية فهو عربي». ولكنه يضيف إلى عامل اللغة العوامل الأخرى في بناء الصرح القومي وهي: وحدة الجنس والدم، وهي وحدة تصدق على الكثرة من أبناء العروبة، ثم التاريخ المشترك، والحضارة المشتركة، ووحدة الأماني والأهداف والآمال والآلام عبر مسيرة العرب التاريخية الطويلة، وأخيراً المصلحة المشتركة التي تربط أقطار العروبة بعضها ببعض. وهو يرد على القائلين بفرعونية مصر وفينيقية لبنان بالإشارة إلى كثرة القبائل العربية التي استوطنت هذين القطرين وكان لها الفضل في إعطائهما وجهاً عربياً ناصعاً.

ومن أبحاثه التاريخية محاضرته التي ألقاها في بهو المجمع بدمشق عام تسعة وعشرين وتسعمئة وألف وعنوانها: «الأندلس، عبرة وذكرى» وفي مستهل هذه المحاضرة صور ما يعتمل في صدره من انفعالات كلما راوده طيف الأندلس، ثم تحدث بإيجاز عما حققه العرب من مستوى حضاري رفيع في ذلك القطر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما كان لحضارتهم تلك من امتدادات وأصداء في حضارة الغرب، وانتقل بعدئذ إلى تلخيص تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي حتى أفول شمس الحكم العربي وانحسارها عن ذلك القطر.

ومن أبحاثه القانونية محاضرته التي جعل عنوانها: القضاء في الإسلام (ألقاها في بهو المجمع في التاسع والعشرين من شهر تموز عام ١٩٢١). وقد تناول في هذه المحاضرة أولاً دواعي بحثه هذا الموضوع، ثم وقف عند نقطة هامة، هي مدى تأثر النظم القضائية الإسلامية بالتشريع القضائي الروماني، وقد أثبت بالحجة الدامغة أن الشريعة الرومانية لم يكن لها أي أثر سواء في نشأة القضاء في الإسلام أو في التشريع القضائي الإسلامي، وقد يكون العكس أدنى إلى الصحة، والقضاء الإسلامي له روافد معروفة استمد منها شرائعه ونظمه تلك هي الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

ثم عرض بعدئذ إلى القضاء في العصر الجاهلي وقيام الحكام عصرئذ بالحكومة بين المتخاصمين استناداً إلى الأعراف السائدة. وكان الحكام يتصفون برجاحة العقل وسداد الرأي.

فلما جاء الإسلام دعت الحاجة إلى اختيار قضاة ينظرون في الخصومات، وكان عمر أول من سمى رجالاً من المسلمين لتولي القضاء وجرى من بعده على سنته. وكان القضاة يستندون في أحكامهم إلى الكتاب في أول الأمر، وبعد نمو علم الفقه استندوا إلى الأصول الأربعة المعروفة.

وكان أتقياء المسلمين يتحامون تولي القضاء لتبعاته الثقال، وكانوا ربما تعرضوا للنكال والبطش بسبب امتناعهم من تولي هذا المنصب. وكان للقضاء آدابه وشروطه التي لا تتوافر إلا في قلة من خيار المسلمين. وقد عرف القضاة في العصور الأولى بنزاهتهم وصرامتهم وتحريهم العدالة، وكانت للقاضي منزلة عظيمة لدى أرباب السلطان ولدى عامة الناس، وكثيراً ما كانوا يقضون لإنسان لا شأن له على الخليفة أو الوالي فيجوز حكمهم ولا يعترضون عليه.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتناول الفقيد بعد ذلك الرواتب التي كان يتقاضاها القضاة في الإسلام والشهادة وشروطها، وبين أوجه الاتفاق بين القضاء في العصر الحديث والقضاء في الإسلام في طائفة من الإجراءات القضائية والتشريعات وأنواع الجرائم وعقوباتها. فليس التشريع القضائي الحديث مباينا في جله لما كان عليه القضاء في الإسلام على رغم استمداد التشريع الحديث من النظم القضائية الغربية.

وأقف أخيراً عند محاضرته القومية حول الوحدة العربية التي ألقاها في مؤتمر اللغة العربية في القاهرة عام واحد وستين وتسعمئة وألف. (نشرت في مجموعة البحوث والمحاضرات للمؤتمر).

في كلمته هذه يؤكد الفقيد المقولة التي تجعل اللغة أولى دعائم القومية، بل هو يجمع بينهما ويجعل كلاً منهما رديفة للأخرى، فكما أن وحدة الأمة تعضد لغتها وترتقي بها، فكذلك اللغة توحد أبناء الأمة، وهي تنوب مناب وحدة الدم التي لم تعد ممكنة بعدما وقع بين الشعوب والأمم من اختلاط وتشابك في الأرحام والأنساب. واستشهد في تأييد هذا الرأي بقول الرسول عليه السلام: «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم، إنما هو اللسان، من تكلم العربية فهو عربي».

ومن هنا نجد الاستعمار يوجه همه إلى القضاء على لغات الأمم التي سيطر عليها، لأن اللغة هي مفتاح الاستقلال لكل أمة.

وقد ألقى الفقيد محاضرته في ظل الوحدة التي قامت بين القطرين المصري والسوري عام ثمانية وخمسين من هذا القرن. ومن هنا فهو يتساءل: ترى هل الوحدة العربية بدعة قامت على نزعة جامحة أو أنها حقيقة تاريخية ثابتة؟ ويجيب عن هذا التساؤل بقوله إن الوحدة العربية «هي الحقيقة التاريخية والأمل المنشود، قضى في سبيلها من قضى وصلب من صلب واستشهد من استشهد وعيناه شاخصتان إليها، مطمئن قلبه أنها آتية لا ريب فيها».

ثم يعدد بعد ذلك مقومات هذه الوحدة فيقول: «إنها الحقيقة لا خيال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيها، قامت على وحدة الأصل، ووحدة اللغة، ووحدة التاريخ، ووحدة الأدب، ووحدة الاشتراع. ووحدة السياسة والإدارة، ووحدة الرأي والمبدأ، ووحدة العقيدة والإيمان، ووحدة المصالح والأهداف. هي الرغبة في أن نعيش أمة واحدة في وطن واحد، إلا من أضله الله وما له من هاد».

ويروح الفقيد يستعرض بعد هذا بعض ما قاله مفكرو الفرنجة والعرب في تكوين الأمم ومقومات الأمة ويرصد مظاهر الوحدة في الوطن العربي الكبير.

ثم يتساءل: ما دامت هذه الأواصر القوية بين شعوب الوطن العربي قائمة فما الذي يحول دون قيام وحدتها المنشودة؟

ويجيب عن هذا التساؤل بأن يجعل العائق دون قيامها أمرين: أولهما: الاستعمار وثانيهما: الاستئثار. ويعرف الاستئثار بأنه استخدام المستعمر لنفر من أبناء البلاد من ضعاف النفوس، يتخذهم صنائع له ويسلطهم على الوطنيين لينفذوا سياسته ويحققوا مأربه.

وسياسة المستعمر تقوم على مبدأ: فرق تسد، فهو لذلك لا يني يوجه همه إلى تمزيق الوشائج التي تربط بين أبناء الأمة الواحدة فيجعلهم شيعاً ويبث بينهم الأحقاد والضغائن ليحول دون توحد كلمتهم. ويأتي الفقيد بأمثلة من التاريخ تعضد قوله.

وهو ينظر نظرة متفائلة إلى مستقبل الأمة العربية ويرى أنّ الوحدة آتية لا محالة مهما تقف في وجهها الصعاب والعقاب.

ويحلل أخيراً بواعث قيام الوحدة الثنائية بين سورية ومصر ويبين حاجة كل منهما إلى الأخرى ويختم محاضرته ببيان التبعات الملقاة على رجال العلم للنهوض باللغة العربية التي هي أبرز المقومات في وحدة الأمة.

هذا استعراض سريع لمراحل حياة الفقيد وسيرته وآثاره أتيت به وفاء لذكراه وجليل مكانته. رحم الله الفقيد، فقد كان رجلاً لا كالرجال يصدق فيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قول الشاعر :

هيهات أن يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لضنين

●●●

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net